



كلية اللغة العربية بأسسيوط
المجلة العلمية

**مشاركة الحجاج المغاربة في الاحتفالات الدينية في مصر
من خلال الرحلات الحجازية في القرنين ١٧ - ١٨ م.**

إعداد

الدكتور/ فتيحي محمد الكبير

أستاذ محاضر - أ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
(تخصص تاريخ حديث) - جامعة طاهري محمد - الجمهورية الجزائرية

(العدد الأربعون)

(الإصدار الأول - الجزء الثاني)

(١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م)

مشاركة الحجاج المغاربة في الاحتفالات الدينية في مصر

من خلال الرحلات الحجازية في القرنين ١٧ - ١٨ م.

فريقي محمد الكبير

قسم التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة طاهري محمد،
الجمهورية الجزائرية

البريد الإلكتروني: /00541202649, figuiguimohamed@hotmail.com

المخلص:

تعالج هذه الدراسة مشاركة الحجاج المغاربة لبعض المظاهر الاحتفالية عند المصريين، لا سيما في الحواضر، أثناء إقامتهم بالبلاد المصرية، في رحلتي الذهاب والإياب لأداء فريضة الحج بالحجاز، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، استنادا بالأساس إلى ما سجله المغاربة في رحلاتهم الحجازية. وبالنظر إلى أهمية مصر كمركز إشعاع حضاري، فقد حرص المغاربة على التوقف بها، بشكل دائم أو مؤقت، للمشاركة في الطقوس الاحتفالية المرتبطة بموسم الحج، والتبرك بالمقدسات، والأخذ عن أقطاب التصوف والعلماء، وبذلك سجلوا حضورهم بين المصريين، فأثروا فيهم، وتأثروا بهم.

الكلمات المفتاحية:

ركب الحج، الحجاج، الرحالة، المغاربة، مصر، الرحلات الحجازية، المجتمع المصري.

**Maghrebins pilgrims participate in religious
celebrations in Egypt
Through the Hijaz journeys in the 17-18
centuries AD.**

Fakiqi Muhammad the Great

**Department of Modern History, College of Humanities and
Social Sciences , University of Taheri Mohamed , the
Republic of Algeria.**

Email : figuiguimohamed@hotmail.com /00541202649,

Summary;

This study deals with the interaction of Maghrebins pilgrims with the social milieu, especially in Egyptian urban cities during their stay in the Egyptian country on a round trip to perform the Hajj in the Hijaz during the seventeenth and eighteenth centuries AD. Based on what Moroccans recorded in their Hijaz trips. Due to the importance of Egypt as a cultural center of radiation, Moroccans were keen to stop there, permanently or temporarily, to participate in the ceremonial rituals associated with the Hajj season, blessing the holy sites, and learn about the poles of mysticism. And scholars, and so they recorded their presence among the Egyptians, and interacted with them.

key words :

Pilgrims, Travelers, Maghrebins, Egypt, Hijaz trips, Egyptian society.

تقديم.

تحظى مصر بأهمية خاصة لدى المغاربة، بالنظر إلى موقعها الإستراتيجي في طريق الحج نحو الحجاز ذهابا وإيابا، إضافة إلى المكانة العلمية لمصر، وكذا العلاقات التاريخية والحضارية المترسخة بين مصر وبلدان المغرب. ومن أجل ذلك خصص أصحاب الرحلات المدونة من المغاربة حيزاً معتبراً في كتاباتهم للقطر المصري.

ومن أجل ما تقدم فقد حرص الرّحالة والحجاج المغاربة على التوقف بمصر لمدة طويلة أو الاستقرار بها نهائياً، إذ أن جملة من الأعيان المغاربة قضوا ما بقي من حياتهم في مصر، أمثال: ابن خلدون وأحمد المقري ويحي الشاوي وأحمد بن عمار وغيرهم.

وعلى ذلك ستعالج هذه الدراسة تسجيل الحجاج والرحالة المغاربة لحضورهم الاجتماعي بمصر خلال القرنين ١٧ و ١٨م، ومدى تفاعلهم مع البيئة المصرية، من حيث المشاركة في المظاهر الاحتفالية، والاحتكاك بمختلف الطبقات الاجتماعية، خصوصاً أهل التصوف والعلماء، والتبرك بالآثار والمقدسات، وما نتج عن ذلك من تواصل اجتماعي، انعكس على المجالات الأخرى لا سيما الجانب العلمي والثقافي.

يجدر بنا قبل معالجة الموضوع أن نتعرف على الرحلات الحجازية وأصحابها المغاربة، باعتبارها المصادر الأولى المعتمدة في الدراسة.

- رحلة أحمد المقري التلمساني: عاش ما بين ١٥٧٨/٩٨٦هـ - ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م، من أعلام الجزائر، اشتهر بسعة العلم وشدة الحفظ، له تأليف عديدة، كانت رحلته إلى مصر سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٩م، ومنها توجه إلى الحجاز لأداء

فريضة الحج، ثم عاد إليها سنة ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م، واستقر بها لمدة أربعة عشر سنة، تنقل أثناءها بين الحرمين وبيت المقدس ودمشق، توفي بالقاهرة.

- الرحلة العياشية: نسبة إلى أبي سالم عبد الله محمد بن أبي بكر العياشي، (١٠٣٧هـ/١٦٢٨م - ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)، نشأ نشأة علمية دينية، في كنف زاوية أجداده العياشية الشاذلية، كانت أول رحلة مشرقية له سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م، وهو لا يزال شابا، شغوبا بروية المقدسات والمزارات والمسالك. أما رحلته الحجازية الثانية فكانت سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م، وفيها تجلّت اهتماماته العلمية، بينما رحلته الثالثة سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م، فقد أُلّف على إثرها رحلته المشهورة "ماء الموائد".

- الرحلة الناصرية: لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، المتوفى سنة ١٠٢٩هـ/١٧١٧م، رحل إلى المشرق ثلاث مرات، الأولى سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م والثانية عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م، والثالثة سنة ١١٢١هـ/١٧٠٩م، وهو عالم صوفي ومحدث، كان مغرما بجمع الكتب لإثراء مكتبة الزاوية الناصرية التي كان شيخا عليها، بعد وفاة والده محمد بن ناصر مؤسس الزاوية.

- الرحلة الورتيلانية: للحسين بن محمد السعيد الورتيلاني، الزاوي الجزائري (١١٢٥هـ/١٧١٣م - ١١٩٣هـ/١٧٧٩م)، حج ثلاث مرات، سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م وعام ١١٦٨هـ/١٧٥٤م، والثالثة سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م. تجاوز عدد شيوخه بمصر العشرين شيخا، تعرف رحلته بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

-رحلة الزبادي: المسماة "بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام" لأبي محمد عبدالمجيد بن علي المنالي الفاسي، الشهير بالزبادي، وهو فقيه صوفي، ولغوي أديب توفي سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٠م، رحل إلى المشرق سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م،

صاحب فيها قطب الخلوتية بالمغرب أحمد الصقلي. تميز في رحلته بإحصاء الأجناس والطوائف والمذاهب. ومناقشة المسائل الصوفية والفقهية واللغوية.

- رحلة أبي القاسم الزياني: مؤرخ الدولة العلوية المشهور، جمع رحلاته في كتابه "الترجمانة الكبرى، في أخبار المعمور برا و بحرا". رحل إلى المشرق سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٥م.

- رحلة التتلاني، عمر بن عبد الرحمن، نسبة إلى قرية " تتلان" ببلاد توات الجزائرية كانت رحلته الحجازية سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م، توفي بمصر بعد عودته من الحج سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م.

أ- توافد المغاربة على البلاد المصرية.

يعود توافد المغاربة بمصر إلى عصور قديمة جدا، بحكم التداخل الجغرافي بين أرض مصر وبلاد المغرب، وفي العصر الأيوبي ظهرت أكبر موجة لهجرة المغاربة نحو مصر، وهي تلك المصاحبة للوجود الفاطمي بها، من فروع قبائل البربر المختلفة، وفي مقدمتهم العناصر الكتامية، إلى جانب جماعات الحجاج والدارسين وأصحاب الحرف من المغاربة والأندلسيين، الذين توافدوا على مصر طوال العصور الوسطى والحديثة،^(١) وإلى يومنا هذا، حيث استقرت الأفواج الأولى منهم حول منطقة البحيرة والواحات، حتى أصبحت لهم الغلبة العددية.^(٢)

(١) حنفي، أحمد عبد اللطيف، المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٥م. ص ٤٢.

(٢) ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٣، ط ٢، بولاق، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠، ص ١٢.

من المنازل التي خصصها الأيوبيون لإقامة الحجاج المغاربة رفقا بالضعفاء منهم مسجد ابن طولون أو الزيادة المجاورة له.^(١) بينما حرص معظم الحجاج والمسافرين المغاربة منذ القرن ١٧م على الإقامة في مصر لدى أقاربهم ومعارفهم وأصدقائهم، وتجلّى ذلك في عدة نصوص أوردتها الرحالة.^(٢)

وعلى العكس من ذلك فإن رحالة العصر الوسيط، كانت معظم إقامتهم في الخانات والفنادق والوكالات. فلقد نزل ابن جبير بفندق أبي الثناء بمدينة الفسطاط القريب من جامع عمرو بن العاص،^(٣) وفي مدينة قوص^(٤) نزل بفندق ابن العجمي.^(٥) وبنفس المدينة نزل الرحالة التجيبي بفندق يعرف بخان المكرم، وهذا

(١) العياشي، أبو سالم، ماء الموائد (الرحلة)، طبعة حجرية بفاس، اعتنى بها محمد حجي، ج ١، ١٩٧٧، ص، ٨٣.

(٢) الزبادي، عبد المجيد بن علي الفاسي، بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، تحقيق محمد زينهم، ط ١، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص، ٢٣٠.
= الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ١٣٤٩، الورقة ٢١٥.

= العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦١.

(٣) ابن جبير، الرحلة، دار صادر، بيروت، د-ت. ص ١٩.

(٤) قوص: تقع بالجهة الشرقية من النيل، كانت متحضرة وعامرة والمسافر إليها كثير... ينظر: الإدريسي، أبو عبد الله الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بإفريقيا والأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، ط ٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١١٠.

(٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٤١.

الخان حسب التجيبي كان مخصصا للتجار والجمالين وغيرهم ممن يريد دخول الصحراء.^(١)

هذا التباين في موطن إقامة المغاربة بين الفترتين الوسطى والحديثة يمكن تفسيره بما يلي:

- أجرة كراء منزل بشكل جماعي، كانت أرخص من استئجار مجموعة من الغرف في الخان.

- يبدو أن حجاج الفترة الحديثة كانوا في ركب كثير العدد، وكانوا يفضلون الإقامة في المنازل الواسعة.

- الملاحظ أن الأندلسيين في العصور الوسطى هم الذين كانوا ينزلون بالخانات لأنهم ميسوري الحال على العموم، ومعظمهم اجتاز طريق الحج عبر البحر، ولذلك كانت تكاليف الرحلة ضئيلة.

- حالة الخانات تطورت في العصر الحديث، حيث كثر الأجانب وعمّ الاختلاط وارتفعت أسعار الإقامة.

- الأسر والقبائل المغربية بمصر ازداد عددها في الفترة الحديثة.

تشير نصوص رحالة القرنين ١٧ و ١٨م إلى أن ركب الحجاج المغاربة كان يحظى باستقبال وعناية من طرف المصريين بتنصيب الخيام والأسواق. فتمتلى

(١) التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف، مستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م. ص ١٧٣.

الأرض بالأسواق من بركة الحاج^(١) إلى القاهرة.^(٢) ويطلب فريق من الفلاحين المصريين أصحابهم ومعارفهم، ليودعوهم، حيث يترك الحجاج عندهم بهائمهم وما يستثقلونه من الأحمال، حتى يعودوا من الحجاز.^(٣)

الاستعداد الحقيقي للحج يكون يوم خروج المحمل من القاهرة إلى بركة الحاج، فيشتري الحجاج الإبل أو يستأجرونها، وكانت تختلف رغبة الحجاج بين الكراء والشراء، وبما أن الأسعار في البركة كانت أرخص من القاهرة، فقد كان معظم الحجاج يشترون لوازمهم في البركة.^(٤)

عند البركة تنقسم أركاب المغاربة إلى فريقين: فريق يبقى في الركب نفسه، وفريق يلتحق بالركب المصري، حيث يخرج المصري أولاً ثم يلحقه الجزائري والمغربي.^(٥) فالجزائريون كان لهم ركب موحد، وكذا أهل تونس، أما ركب المغرب الأقصى فيتكون من الركب الفاسي والفيلاي، أما الركب الليبي فكان

(١) هي قرية صغيرة تبعد بعشرة أميال عن القاهرة في الجهة الشمالية الشرقية، من المحطات الهامة التي كان يتجمع فيها الحجاج قبل سفرهم إلى الحجاز. ينظر: الكحلوي محمد، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ١، ١٥٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م. ص ٦٦.

(٢) الدرعي، المصدر السابق، ورقة، ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ورقة ٦٩.

(٤) الورتيلاني، الحسين، الرحلة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: ٢١٧١، ورقة ٨٠.

(٥) الزياي، المصدر السابق، ص، ٥٦.

يتكون من الطرابلسي والفرّاني، وتلتقي هذه الأركاب كلّها بالمصري والشامي والعراقي.^(١)

ولتأمين طرق الحج من مصر إلى الحجاز، وضعت مجموعة من الحصون والحاميات العسكرية التركية، في نقاط متعددة داخل الحدود المصرية في: العقبة، والمويلح، وعجروود، وبندر النخيل، وفي هذه البنادر كان الحجاج يخزنون الطعام والمؤونة على الدوام، ليجد الراكب فيها حاجته في الذهاب والإياب، ويترك فيها ما استقله من الأحمال، ولولا هذه البنادر لما استطاع الحجاج تجاوز متاعب الرحلة.^(٢)

ب - مشاركة الحجاج المغاربة في احتفالات خروج ركب الحج المصري.

١ - احتفال تعيين أمير الحج وخروج المحمل وكسوة الكعبة المشرفة.

لقد ورث الأتراك العثمانيون عن المماليك لما انتزعوا منهم حكم مصر منذ عام ١٥١٧م العناية والاهتمام بشأن الحج والحجاج وتعظيم الآثار والمقدسات الإسلامية، إذ كان منصب أمير الحج أجلّ المناصب عند المماليك. فتولي إمارة الحج مهمة ثقيلة، وعلى صاحبها أن يتحمل نفقات الرحلة من ماله الخاص، دون أن

(١) فيلالي، عبد الكريم بن الطاهر، الرحلة الورتيلانية (عرض ودراسة)، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د- ت. ص ٨٢.

= قدمت دراسة حول ركب الحج المغربي من طرف: البزاز، محمد الأمين، رحلة الأيمان والمتاعب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد: ٢٧، بعنوان "وقفات في تاريخ المغرب" ط ١، ٢٠٠١م، ص ١٦٩ - ١٨٢.

(٢) الزياي، المصدر السابق، ص، ٥٧ = الورتيلاني، المصدر السابق، ورقة، ٩١.

= التتلاني، عبد الرحمن بن عمر، الرحلة الحجازية، نشر بلعالم محمد باي ضمن كتابه: الغصن الداني في ترجمة الشيخ التتلاني، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص ٦٩.

يتقاضى أي أجر من السلطان، ولا من رجال ركب الحج.^(١) وهذا المنصب كانت له أهميته بالنسبة للمغاربة لأن الحجاج منهم كانوا ينضون تحت لواء هذا الأمير.

ولذلك كان الحجاج المغاربة مخيرين بعد نزولهم أرض مصر، إما بالبقاء في ركاب المغاربة، أو الالتحاق بالركب المصري، فكان بعض الحجاج يختارون الركب المصري، لما فيه من التنظيم والأمن والحراسة والمرافق الضرورية، مثل ما حدث مع الرحالة الورتيلاني، الذي اختار الالتحاق بالركب المصري بدل الركب الجزائري، لما فيه من الظلم واللغظ والهرج.^(٢)

لقد صور لنا الرحالة المغاربة خلال القرنين ١٧ و ١٨م مراسيم تعيين الباشا المصري للأمير الحج، فبعد خروج كسوة الكعبة والمحمل على جمل، يقوده سائس، يناول رأس الجمل للباشا فيأخذه بيده، ويناوله للأمير الحج بحضرة القاضي والأمراء ومعاينتهم، يناوله أمير الحج لسائسه فيذهب به، وكل ذلك شهادة على الباشا بأنه مكن للأمير المحمل وكل ما يحتاج إليه أمير الركب من ذهابه إلى إيباه. وعلى هذا الأمير بأنه تسلم ذلك، ويشهد على ذلك القاضي والأمراء، ويكتب ذلك إلى السلطان.^(٣)

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضرى، ج ٢، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٣٢.

(٢) الورتيلاني، المصدر السابق، الورقة: ٨١.

(٣) المصدر نفسه، الورقة: ٧٦.

= الدرعي، المصدر السابق، الورقة، ٨٢.

= العياشي، المصدر السابق، ج ١، ص: ١٨١.

وهذا التقليد ظل محافظا على الطقوس التي كان عليها أثناء الفترة الوسيطة، فهي لا تختلف عن الصورة التي احتفظت بها رحلات المغاربة الوسيطة.^(١)

ويصاحب الاحتفال المذكور سالفًا احتفال آخر شدّ اهتمام الحجاج المغاربة، فعينوه، وتابعوا مراحلهم المختلفة، إنه احتفال وموكب خروج محمل كسوة الكعبة المشرفة من دار الصنعة بالقاهرة إلى بركة الحاج، ومنها إلى الحجاز، ما جعل الرحالة المغاربة يسجلون ملاحظاتهم الدقيقة حول هذا الاحتفال.

قدّم الرحالة ابن بطوطة صورة شاملة ومجملّة عن هذا الاحتفال في بداية القرن ١٤م، فهو يسمي الاحتفال بيوم دوران الجمل، فيركب الأمراء ووكيل بيت المال وغيرهم، فيتجهون جميعًا نحو باب القلعة أي عند دار الملك الناصر، فيخرج المحمل متجهًا إلى الحجاز، ويكون هذا الاحتفال في شهر رجب.^(٢)

أما رحلات القرنين ١٧ و ١٨م تقدم صورة مفصلة أكثر عن الاحتفال، بحيث يحتفظ بنفس الطقوس التي كانت سائدة من قبل، ولكن المحمل أصبح يخرج في شهر شوال^(٣) بدل شهر رجب.

(١) ينظر: الحسن الوزان، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٣٢. وكذلك: ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، الرحلة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص ص ٤٦ - ٤٧.

(٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص ٤٦ - ٤٧.

(٣) العياشي، المصدر السابق، ج ١، ص، ١٨٠.

= الدرعي، المصدر السابق، ورقة، ٨١.

يؤتى بالمحمل من دار الصنعة، وتوضع سحابة على باب القلعة بحضور قادة الجند، والولاة والأمراء والحكام والعلماء، كل منهم في مجلس معلوم من السحابة، أما مجلس الباشا فيكون في الوسط، وعن يمينه مجلس القاضي، وعندما يكتمل الحضور في مجالسهم، تخرج هذه الطوائف الواحدة تلو الأخرى، وآخر من يخرج الباشا تسبقه طائفة من الجند تعرف بالشاوشية.^(١)

وإذا وصل الباشا إلى السحابة، قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس، وبعد جلوسه، يؤتى بالجمل الذي يحمل المحمل، والمحمل قبة من خشب بديعة الصنع، به شبابيك ملونة بأنواع الصباغ، عليها كسوة من الديباج الرفيع المنمق بالذهب، كما أن الجمل ورقبته وسائر أعضائه محلاة بجواهر، والجمل غاية في السمن وعظم الجثة، وحسن المظهر، جلده مخضوب بالحناء، يقوده سائسان، أحدهما على اليمين والآخر عن الشمال، يتبعه جمل آخر على مثل صفته، ويؤتى بعد ذلك بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً، كل قطعة محمولة على أعواد يحملها رجال على رؤوسهم، والناس يتبركون ويتمسحون بها، ثم يمر كل ذلك بين يدي الباشا والأمراء يقومون لها إذا مرت تعظيماً، ويتجه حملتها إلى وسط المدينة ثم يتوقفون عند المشهد الحسيني، حيث تنشر في صحن المسجد وتخاط هناك.^(٢)

كل هذه المراسيم تمثل المرحلة الأولى من خروج المحمل في منتصف شهر شوال. أما المرحلة الثانية، فتبدأ يوم الحادي والعشرين من شوال، حيث يخرج المحمل من القاهرة، ومظاهر الاحتفال في هذا اليوم تكون أكثر من المرحلة الأولى،

(١) العياشي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٠.

(٢) الدرعي، المصدر السابق، ورقة، ٨٢، ينظر أيضاً: = العياشي، المصدر السابق، ج ١، ص،

١٨٠.

= الورتيلاني، المصدر السابق، ورقة ٧٦.

لأن هذا اليوم بالنسبة للمصريين يعتبر من أيام الزينة، إذ يجتمع له الناس من أطراف البلد المحيطة بالقاهرة، فيؤتى بالكسوة من موضع خياطتها ويجتمع الأمراء والقادة بنفس الطريقة التي اجتمعوا عليها في المرحلة الأولى، يخرج الباشا ويقوم بمراسيم تعيين أمير الحاج.^(١)

يقدم الباشا للأمير كلما يحتاج إليه من إبل وقرب ومصابيح... ويشهد القاضي والأمراء والعلماء على ذلك. فإذا مرّ المحمل بين يدي الباشا، يؤتى بالإبل ويخرج كل ما بها بين يديه، ثم يمر المحمل بسائر الطوائف الأخرى، كل طائفة بمقدمها. ثم يأتي الرماة الراجلين من ورائها فيمرون وتأتي بعد ذلك الخيل، فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا، جاء أرباب الوظائف، وطائفة من مشائخ الصوفية بشيخهم وألوانهم، رافعين أصواتهم بالذكر، ومن هذه الطوائف القادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية، فتمر بين يدي الباشا، ويعطيهم ما تيسر، ثم يخلع الباشا على أمير الحاج خلعة وعلى كل الأمراء المسافرين معه، وبعد ذلك يودعه وينصرف نحو وسط المدينة، وفي ذلك اليوم تتعطل الأسواق.^(٢)

يتجه المحمل من باب القلعة إلى فضاء الرملة.^(٣) وهناك يقيم ركب المحمل إلى آخر اليوم السابع والعشرين من شوال.^(٤) ومن شدة الاستعداد لهذا اليوم الكبير أن الديار المشرفة على الشوارع التي يمر بها المحمل يكون أصحابها قد

(١) الرحالة يستخدمون عبارة: أمير الحاج، ينظر مثلا: الدرعي، المصدر السابق، ورقة، ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ورقة، ٨٣.

(٣) هي فضاء واسع خارج قلعة الجبل، تباع فيه الإبل والخيل وسائر الدواب وغالب ما يحتاجه

الحاج، وبه مطاحن لتدشيش الفول، ينظر: المصدر نفسه، ورقة، ٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ورقة، ٨٤.

استأجروها، ثم يطلبون من مستأجريها، أن يفرغوها في هذا اليوم،^(١) قصد الفرجة والتبرك بهذه المناسبة.

والغريب أن الرحالة المغاربة لا يذكرون دور المغاربة في هذا الاحتفال، الذي أبرزه الرحالة أوليا جلبي، وهو أن المحمل عندما يتحرك في شوارع القاهرة، يتصدق بعض الناس على حاملي الكسوة من المغاربة، فيقتربون منهم ويمسحون بوجوههم الكسوة، وكل لفافة من هذه اللفائف يحملها مغربي على رأسه، وذلك اليوم يعرف بـ: "يوم المغاربة".^(٢)

٢ - احتفال الألعاب النارية والفرح بالنصر.

سجل الدرعي إعجابه بتقنية الاحتفال بالألعاب النارية في الطريق من مصر إلى الحجاز، وبالتحديد في حصن حصين في قرية على شاطئ البحر على سفح جبل. وهذا الاحتفال يحضره أهل غزة من بلاد الشام وأعراب تلك الناحية، حيث يوقد أفراد الركب المصري أثناء الليل نيرانا كثيرة ويضربون بالمدافع، ويرمون المحارق في الهواء، فتبدو وكأنها شهب النجوم في منظر عجيب وأسلوب غريب، إذ تتصاعد إلى نقطة بعيدة في الجو تضاهي الجبال الشامخات، وتعود نازلة إلى الأرض، وتحدث صوتا قويا مصحوبا بشرارات من النار.^(٣)

يؤكد الدرعي أن أهل المغرب آنذاك لم تكن لهم معرفة بهذه الألعاب ولا بتلك الصناعة النارية، فهي من اختصاص المصريين، وكان ذلك شأنهم عند نزولهم بأي

(١) المصدر نفسه، ورقة، ٨٣.

(٢) جلبي أوليا، الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، تقديم محمد حرب، ترجمة حسين مجيب المصري وآخرون، مراجعة ماجدة مخلوف، ج ١، ط ١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٥٤٨.

(٣) الدرعي، المصدر السابق، ورقة ١٠٠.

منزل كلما أرادوا الرحيل إلى منزل آخر،^(١) وهذا الاحتفال يرتبط أيضا مثل موكب المحمل والكسوة بموسم الحج وركبه.

في غير أوان الحج تستخدم هذه الألعاب، بمناسبة قطع النيل،^(٢) بحضور الباشا وأرباب الدولة، فتقام اللوائم من طرف الأمراء والقادة للباشا، وتقدم له الهدايا، ولم يكن يحتفل بهذا اليوم عندما تكون الأحوال الاقتصادية متدهورة، ويؤكد أوليا جلبي أن المصريين كانوا مهرة في صناعة هذه الألعاب النارية، حتى وإن كان الفرنجة هم أول من اخترعها إلا أن المصريين قد أتقنوها إتقانا يبعث على الإعجاب.^(٣)

لم يسجل المغاربة الاحتفالات الدينية فحسب، وإنما انتصارات الدولة العثمانية أيضا، فلقد عاين العياشي احتفالا بمناسبة فتح الجيش العثماني لإحدى مدائن النصارى بأوروبا، أثناء إقامته بمدينة القاهرة مدة أربعة عشر يوما بعد قدومه من الحجاز، حيث أمر السلطان العثماني، عندما وقعت في يده مفاتيح ثلاثين قلعة عظيمة حصينة من تلك المدينة المفتوحة بتزيين القاهرة، سبعة أيام بلياليها سرورا بذلك الفتح، فزينت الأسواق والطرقات، وتعطل البيع والشراء، إلا ما يتناسب مع احتفال النصر من طعام ونحوه، كما أوقدت الشموع طول الليل، في الشوارع والطرقات، وعلقت أستار الحرير والديباج في الحوانيت، ونصبت التصاوير الغريبة الشكل في الخانات وغيرها.^(٤)

(١) الدرعي، المصدر السابق، ورقة ١٠٠.

(٢) أي عندما يفيض النيل وتغمر مياهه الأرض عدة شهور، ينظر: أوليا جلبي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

(٤) العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٠.

هذه الصورة الاحتفالية، تعكس إحدى السلوكيات والطبائع المترسخة في المجتمع المصري، وهي الفرحة والسرور بكل مناسبة متميزة، وتجسد ذلك التواصل المعنوي بين السلطان والرعية، بل إن الاحتفالات كانت تقام لأمر أبسط من الفتح، مثلما سجل لنا ابن بطوطة ذلك، عن الاحتفال الذي أقيم بسبب برء إصبع السلطان الناصر قلاوون.^(١)

ج - التفاعل مع الطرق الصوفية واحتفالاتها.

١ - الأخذ عن أقطاب التصوف ونشر الطرق الصوفية.

أكثر اللقاءات قداسة لدى الرحالة والحجاج المغاربة هي مجالسة أقطاب التصوف، وهذه اللقاءات كانت خاصة جداً، ولها أهميتها على مستوى التربية والتكوين النفسي والإيماني، كانت تتمحور حول أخذ الإذن في مسألة ما، أو الحصول على بعض الأسرار، وكذلك تجديد العهد على الالتزام بطريق التصوف.

إن معظم رحلة القرنين ١٧م و١٨م كان هدفهم البحث عن الشيخ المري والملقن والمرشد، خاصة في مصر، فنجد العياشي يأخذ الطريق عن شيخه أبي اللطف الوفائي، أحد شيوخ الطريقة الوفائية بمصر، حيث ألبس العياشي الخرقة، وكناه بأبي سالم، وقال له: "هذه خرقة السادات" وذلك عام ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م.^(٢) رغم أن العياشي سبق وأن أخذ الطريق على يد والده الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي^(٣) المتوفي سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م، مؤسس زاوية آيت عياش الشاذلية،

(١) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) العياشي، اقتفاء الأثر بعد زهاب أهل الأثر، تحقيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط، العدد رقم: ٣٣، ١٩٩٦م. ص ١٥٧.

(٣) ترجمته في الاقتفاء، ص ١٠٣.

ومن ابرز خصائص الشاذلية عدم التلقين، أي عدم الالتزام بورد معين أبداً، ولذلك أخذ العياشي على كل من لقي من الشيوخ، الذين تتصل طرقهم بالطريقة الشاذلية مثل الوفاية.

وعلى الشاذلية جدّد الورتيلاني العهد والطريقة بين يدي الشيخ عبدالوهاب العفيفي، المتصدر لتربية المريدين آنذاك في مصر.^(١) أما الزبادي فقد لبس خرقة الطريقة الدسوقية على يد الشيخ سليمان الخالدي الطنطاوي، وذلك عن طريق المصافحة وعقد الأخوة في الله، وتلقينه ذكر الدسوقية، وأجازه بعد ذلك في جميع ما يتصل بها.^(٢)

من فروع الشاذلية الأم، التي سعى بعض الرحالة إلى نشرها، وتوطيد أركانها بمصر الطريقة الناصرية، حيث أشار الرحالة الناصر الدرعي - أحد شيوخها - إلى سعيه من أجل اللقاء بالمريدين والمقدمين، وتنصيب ملقنين لهذه الطريقة، لما رآه من رغبة الناس بمصر في دخول طريقته، فتلقى على يديه طائفة كبيرة الورد، وقدم عليهم في القاهرة الشيخ محمد المنصور السبطي، وأذن له في تلقين الأوراد بالنيابة عنه.^(٣) وفي الإسكندرية قام الدرعي بتقديم الحاج محمد الناضور على من بها من المنتسبين.^(٤) وكان ذلك شأن كل الطرق الصوفية في نشر تعاليم الطريقة، وتأسيس الزاوية وجمع المريدين.

(١) الورتيلاني، المصدر السابق، ورقة ٨٣.

(٢) الزبادي، المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٣) الدرعي، المصدر السابق، ورقة ٢١٦.

(٤) المصدر نفسه، ورقة، ٢٢١.

والفضل في تأسيس الطريقة الناصرية، وتوسعها في المغرب والمشرق يعود إلى مؤسسها الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي، المتوفي سنة ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م، كان قائما بالتربية والتعليم على مستوى زاويته، رحل إلى المشرق، ولقي الشيخ أبا بكر السكتاني، واستفاد منه، كان يلقن الأذكار. من تلاميذه الحسن اليوسي، والعايشي وابنه أحمد صاحب الرحلة^(١) الذي استخلفه والده على القيام بشؤون زاويته، وأذن له في تلقين الأوراد، يروى عنه أنه لما دخل المدينة المنورة في حجته الأخيرة، جلس تجاه الحجرة الشريفة، والناس يزدحمون عليه لأخذ العهد، وتلقين الأوراد.^(٢)

وهكذا كانت الطريقة الناصرية من أولى الطرق المغربية، التي انتقلت من المغرب إلى مصر وبلاد المشرق، والفضل الكبير في ذلك يعود إلى الرحلة والرحالة وركب الحجاج.

تعد الطريقة الخلوتية المصرية، التي ارتبط اسمها بالشيخ أبي سالم محمد الحفناوي من الطرق الحديثة التي وجدت صدى واسعا في البلدان المغربية خلال القرن ١٢هـ/١٨م. والفضل في انتشارها يعود إلى الحفناوي وتلامذته، وفي مقدمتهم محمود

(١) الإفرائي، محمد الصغير، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط١، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠. من أبرز شيوخ الناصرية بالمغرب في أواخر القرن ١٨م وبداية القرن ١٩م، الشيخ الطيب بن كيران، ينظر: الفيلاي عبد الوهاب، الرؤية الصوفية عند الشيخ الطيب بن كيران، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ص ٤٩ - ٧٧.

(٢) الإفرائي، المصدر السابق، ص ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

الكردي، وتلميذه في المغرب القطب أحمد الصقلي الفاسي المتوفي سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٤م، مؤسس هذه الطريقة، حتى أصبحت تعرف بالطريقة الصقلية.^(١)

ومن تلامذة الحفناوي ممن ساهموا في نشر طريقته بالمغرب الرحالة الورتيلاني والزيادي والقادي صاحب "نشر المثاني"، وأبي حفص الفاسي، وأبي عبد الله محمد الجنوي، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الزواوي الجزائري.^(٢) ولذلك فإن سمعة ومكانة الشيخ الحفناوي، وما وقع له من القبول في عصره في جميع الأقطار الإسلامية ما لم يحصل لغيره.^(٣) كان العامل الأساسي في توسع طريقته.

من العوامل التي ساعدت على انتشارها أيضا، أنها تحولت من طريقة سلوكية تهاديبية، إلى طريقة "حضرة" تعتمد على السماع وإنشاد القصائد، فرخص أتباعها لأنفسهم الأحوال، من اهتزاز ورقص وشطح باللسان، على غرار الطريقة العيساوية المنتسبة إلى شيخها محمد بن عيسى، حيث يشبه أحد الباحثين الغربيين حالة الإيقاع والضرب على الدف في هذه الطريقة بالطبل الباسكي.^(٤)

(١) الوارث، أحمد، من نماذج التواصل بين مصر والمغرب: الطريقة الصقلية الخلوتية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة الحسن الثاني... مرجع سابق، ص ٨٤، ترجم للحفناوي: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ١، دار الجبل، بيروت، د-ت، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٦.

(٢) الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، تقديم إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. ص ٣٥٤. حول انتشار الخلوتية، ينظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

(٤) الباسك هم سكان جبال البرانس المحاذية لمقاطعة النفار "La navarre" الفرنسية، لهم ثقافات ثرية، والعباب متعددة، مثل الكرة الباسكية والحديدية. ينظر: إدوارد، دونوفو، كتاب الإخوان، دراسة اتنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق، كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٥٧.

ويؤكد الجبرتي أن الشيخ الحفناوي رغم ما عرف عنه من زهد واجتهاد، فقد تجنب التكلف في طريق التصوف، بتعذيب الجسم والامتناع عن الأكل ونحو ذلك، وقال أن الخلوتية طريقة مؤيدة بالشريعة... وليس فيها تكليف بما لا يطاق.^(١)

وهكذا تمكنت الطريقة الشاذلية الأم أن تتأسس في موطنين، مصر والمغرب، وحدث بعد ذلك تداخل بين فروع الشاذلية مثل الناصرية والوفائية وغيرها. فبلاد المغرب ساهمت بالأشخاص والرجال والبيئة المصرية صقلت تلك المواهب وأكملت بناءها العلمي والسلوكي.

٢ - احتفالات الموالد.

إن موالد السادات والسيدات من آل البيت النبوي وغيرهم من الصالحين متعددة وكثيرة في البلاد المصرية، إذ سجل الزبادي عبد المجيد في رحلته حضوره لموسم السيدة نفيسة - رضي الله عنها - وهذا الموسم يعرف عند المصريين بالمولد.^(٢) لكن الزبادي لم يقدم لنا معلومات وافية عن هذا الاحتفال، حيث كان نزوله عند أحد الشيوخ مع جماعة من أصحابه، وبعد صلاة العشاء اجتمعوا لقراءة قصيدتي البردة والهمزية للإمام البوصيري، وقرأوا كذلك قصائد أخرى، آخر الليل شرعوا في ذكر "الهيئلة" على اصطلاح المغاربة،^(٣) وفي صباح اليوم الثاني خرجوا إلى ضريح السيدة نفيسة، وبقوا هنالك ساعة من الزمن، قضوها في الذكر والدعاء، ثم تفرقوا بعد أن وقع بين ذلك الجمع إخاء في الله.^(٤)

(١) الجبرتي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٢ - ٣٥٣.

(٢) الزبادي، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(٣) الزبادي، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

لقد أحصى أوليا جلبي عدد الموالد التي يحتفل بها في مصر، وذكرها وما يحدث فيها من مراسيم وشعائر، وهي سبع وعشرون مولدا،^(١) بدون المولد النبوي الشريف.

تعتبر الاحتفالات عادة ملازمة لمعظم الطرق الصوفية في مصر أو غيرها، ومن بين احتفالاتها إحياء الموالد السابقة الذكر، وبما أن الرحالة الزبادي قد طالت إقامته بمصر بعد عودته من الحجاز، فقد عاين بعض الاحتفالات الصوفية، الخاصة بالطريقة الرفاعية.^(٢) وأقام ثلاثة أيام بزاوية تلك الطريقة مع جمع من أتباعها، وكان جمعهم العام يبدأ من الصباح إلى الزوال من يوم الثلاثاء، ومن خصائص طريقتهم في الاحتفال، الجهر بالذكر، وقد غلب على كثير من المنتسبين إلى هذه الطائفة التواجد،^(٣) عند السماع، والغيبوبة عند الذكر، كما أن البعض منهم أصحاب أحوال غريبة وعجيبة مثل إمساك الحيات، والنزول في التنانير المضطربة، وركوب السباع وما شابه ذلك، ومع ذلك لهم آداب خاصة، مثل التقشف في المأكل والملبس، ولبس السواد من الأزياء.^(٤)

(١) أوليا جلبي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣ - ١٨.

(٢) نسبة إلى مؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي، قطب من أقطاب التصوف الإسلامي، ولد سنة ٥٠٠هـ - ١١٠٦م، وتوفي سنة ٥٧٨هـ - ١١٨٣م، نشأ في البصرة، استطاعت طريقتة أن تنافس الطريقة القادرية الجيلانية، ترجم له: الشعراي، عبدالوهاب، الطبقات الكبرى، تحقيق، أحمد عبد الرحمن السائح وتوفيق علي وهبة، ج ١، ط ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٢٥٠، وما بعدها.

(٣) من الوجد وهو: خشوع الروح عند مطالعة سر الحق، أو عجز الروح من احتمال غلبة الشوق عند وجود حلوة الذكر، ينظر: الجفني، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط ٢، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ٢٦٤.

(٤) الزبادي، المصدر السابق، ص ١٧٢.

يشبه المؤرخ والرحالة أبو القاسم الزياني أعمال هذه الطائفة بما يقوم به أصحاب "بن عيسى" أو "عيساوة" في المغرب، فكلما قدم زائر إلى مشهد الإمام الرفاعي بقرية يقال لها " أم عبيدة " جنوب "واسط " ببلاد العراق، يقوم الجمع من خدام المشهد بتأجيج النار، والدخول فيها ويقوم بعضهم بأكل الأفاعي،^(١) على غرار ما يحدث في المغرب عند طائفة عيساوة.

يشير العياشي إلى مظهر آخر من الاحتفالات الصوفية، حيث تتجمع الطائفة الشاذلية في قلعة أبي الحسن الشاذلي^(٢) بالإسكندرية، في ليلة معلومة في السنة. دون أن يحدد العياشي تاريخها بالضبط، فبييت ذلك الجمع بالقلعة، ويطعمون ويذكرون الله تعالى، ويقروون، ثم يفترون من هناك إلى مثل ذلك الوقت في السنة المقبلة.^(٣)

يبدو أن هذا النوع من الاحتفالات كان واسع الانتشار بمصر، بالنظر إلى كثرة الطوائف الصوفية، وتعدد المزارات، والأضرحة، والآثار المختلفة المرتبطة بالأنبياء وآل البيت أو الصحابة والعلماء والأولياء الصالحين.

(١) الزياني، أبو القاسم، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ١٨٥.

(٢) علي بن عبد الله بن عبد الجبار، مؤسس الطريقة الشاذلية، ولد بغمارة من جبال الريف المغربية عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦م، يتصل نسبه بالأدراسة الأشراف، درس بفاس، أخذ التصوف وسره عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، انتقل إلى مصر، حيث تأثر به كبار علمائها أمثال: ابن دقيق العيد المالكي وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، و توفي بها سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، له ترجمة في: الشعراني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨. وما بعدها.

(٣) العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٤.

د - التبرك بالآثار والمقدسات.

لقد أنعم الله تعالى على مصر بعدة نعم، منها المشاهد المباركة لآل البيت وغيرهم من الصحابة والعلماء والصالحين عبر مختلف العصور، ولا يتسع المجال في هذه الدراسة لحصر تلك المشاهد وزيارة الناس لها من حجاج ومسافرين ورحالة ومقيمين ...

لم يغفل أصحاب الرحلات من الحجاج المغاربة أثناء القرنين ١٧ و ١٨م وقبلهما عن ذكر المزارات والمشاهد والآثار المقدسة،^(١) وهذا أمر ملفت للنظر، يجعلنا نتساءل عن عوامل اهتمام كل هؤلاء الرحالة بالمزارات رغم اختلاف تكوينهم ومشاربهم.

إن نقطة الاتفاق بينهم، كما يبدو من الرحلات، هي قضية التبرك بالآثار الشريفة المقدسة، حيث تحولت إلى عقيدة راسخة عندهم بحكم الممارسة والتجربة، فالكثير منهم استجبت دعوته وتوسله عند مشهد معين، وتجلت أمامهم الكثير من مظاهر الكشف والعبادة الإلهية، وازدادت هذه العقيدة تجذرا أمام مشاق الرحلة ومخاطرها، فهم يعتقدون أن أولياء المغرب ضمنوا لهم السلامة في الطريق من

(١) خصص الرحالة حيزا كبيرا من رحلاتهم لزيارة المشاهد والأضرحة والآثار على النحو التالي:

- العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج١، ص ص، ١٥٦ - ١٨٣.

- المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٣٦٣ - ٣٧٩.

- الدرعي، المصدر السابق، ورقة، ٩٠، ٩١، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١.

- الورتيلاني، المصدر السابق، ورقة، ٧٩، ٨٠.

- الزبيدي، المصدر السابق، ص، ٦٢، ٦٣، ١٧٤، ٢٠٧، ٢٠٨.

- الزباني، المصدر السابق، ص، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٤، ٢٢٦، ٢٢٧.

المغرب إلى مصر، وأن صلحاء مصر وأقطابها، قد ضمنوا لهم السلامة، في الطريق من مصر إلى الحجاز.^(١)

إن الانعكاسات النفسية للرحلة الطويلة والشاقة، كان لها دور بارز في ترسيخ هذا الاعتقاد، كما أن التكوين الصوفي لهؤلاء الرحالة هو العامل الأساسي في ذلك.

وهذا ما يؤكد المؤرخ الزباني حينما اعتقد أن سبب نجاح رحلته وسلامته فيها، هو أنه قبل بداية رحلته، قرأ رحلة العياشي، وأحصى كل المزارات التي زارها، والمشاهد والآثار والطرق التي مر بها، عملا بسنة اقتفاء الأثر والسير على منهج السلف، فتتبع أثر رحلته، دون أن يتخلف عن أي مزار، حيث يقول: " فاقفيت أثره، فيسر الله أسبابنا باقتفاء أثره، في مزاراته كلها ... " ^(٢)

الجدير بالذكر أن الكثير من المزارات لم تصح نسبتها إلى أصحابها أو أصلها، فمن بين الأضرحة السلطانية التي يزورها الناس بمصر، قبة السلطان " قايتباي " المملوكي، وعلى رأس الضريح حجر فيه أثر قدمين شاع عند الناس أنهما قدما النبي محمد صلى الله عليه و سلم، وهناك حجر آخر فيه أثر قدم آخر، يقال انه للنبي إبراهيم الخليل عليه السلام.^(٣)

وكان بالإسكندرية زاوية لولي صالح ينزلها المغاربة ويمكنون بها أياما، لما فيها من آثار قديمة يتبرك بها، ففيها سلاح معلق يزعمون انه من سلاح الصحابة

(١) العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦٢.

= الورتيلاني، المصدر السابق، ورقة ٧٠.

(٢) الزباني، المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٣) العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج٢، ص ١٥٦.

الذين فتحوا المدينة، وفيها كذلك مصحف كبير بجامعة الكبير، يزعمون أنه من المصاحف التي بعثها سيدنا عثمان رضي الله عنه.^(١)

وفي مدينة طنطا كان المغاربة حريصين على زيارة قبر السيد أحمد البدوي،^(٢) وفي درب الحجاز اشتهر لدى المغاربة قبر سيدي مرزوق الكفافي على ساحل البحر، وفي درب برقة اشتهر لديهم قبر الشيخ أحمد زروق المالكي.^(٣)

ومن المزارات الحديثة التي ظهرت في القرن ١٨م قبر الشيخ الفقيه الجزائري يحي الشاوي وابنه عيسى، الذي يذكره الرحالة المشرقي النابلسي، من بين العديد من المزارات التي زارها وتبرك بها^(٤) في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. أما

(١) العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ص ٣٦٧.

(٢) من أقطاب التصوف، انتقل من فاس إلى طنطا بمصر، عاش ما بين ٥٩٦ - ٦٧٥هـ الموافق ١١٩٩ - ١٢٧٦م، تأثر في طريقته بالقُطبيين، أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلالي. ترجم له: الشعراي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢١. من الدراسات التي أنجزت عنه: رحمة بورقية، رحلة التصوف، سيدي أحمد البدوي، من فاس إلى طنطا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، المغرب، العدد ٠٩ بعنوان: (التواصل الصوفي بين مصر والمغرب)، ٢٠٠٠م، ص ٦٥ وما بعدها.

(٣) حول هذه المشاهد ينظر: الزياي، المصدر السابق، ص، ٦٢، ٦٣، ١٧٤.

= العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٨، ٣٧٩.

= الدرعي، المصدر السابق، ورقة، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١.

= الورتيلاني، ورقة، ١٥٢.

= الزياي، المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٤) النابلسي، عبد الغني، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ١٩١.

الرحالة التركي أوليا جلبي فقد استطاع أن يحصي كل المزارات الموجودة والمعروفة، أي المحددة بضحري ونحوه، إحصاءا كاملا.^(١)
هـ- مجالسة الأعيان والعلماء والتصدر للتدريس.

لم تقتصر زيارات الحجاج المغاربة على الاحتفالات والآثار المقدسة فحسب، إنما حرصوا أيضا على زيارة العلماء والأعيان، والتبرك بمجالستهم. لذلك اهتم أصحاب الرحلات المغاربة في كتاباتهم عن مصر بفئة العلماء وما يرتبط بها من المجالس العلمية ونحو ذلك بالنظر إلى الاعتبارات التالية:

- نزول معظم الحجاج بمصر، كان عند العلماء والمتصوفة، إما في منازلهم أو في مؤسسات عملهم، مثل الجوامع والمساجد والزوايا والمدارس أو كانوا يهيئون لهم ظروف الإقامة في منازل خاصة.^(٢)

- مجالسة الرحالة للعلماء في حلقات التدريس الرسمية وفي الجلسات الخاصة.

- الحرص على أخذ الإجازات أو إعطائها.

- الحوارات والمناقشات التي كانت تتم بين الطرفين حول العديد من المسائل الفقهية والعقائدية.

- محاولة التأكيد على الكفاءة والأهلية عند علماء مصر، لأن شهادتهم وتزكيتهم لها مصداقية في الوسط العلمي الإسلامي، نظرا لوجود جامع الأزهر ومكانته.

(١) جلبي أوليا، المصدر السابق، ج٢، ص ١١١ - ١٥٤.

(٢) الدرعي، المصدر السابق، الورقة، ٨٤.

= العياشي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٦.

- إعداد فهرسة من الأسانيد والمسلسلات والمشيكات، مثل فهرسة الرحالة أبي سالم العياشي، التي تعتبر حوصلة لرحلاته ولقاءاته مع العلماء.^(١)

إن طبقة العلماء كانت فئة اجتماعية لها مكانة متميزة، وكانت السلطة العثمانية والمملوكية تعترف للعلماء ولرجال الأزهر خاصة بمكانتهم وتعتبرهم زعامة شعبية يخشى من جانبها.^(٢)

لقد أدرك العامة هذه المكانة، فكلما اشتد عليهم ظلم الحكام، لجأوا إلى الأزهر وشيوخه، وتجلى ذلك بوضوح أثناء القرن ١٨م، وما تميز به من صراع بين العناصر المملوكية، فأصبح علماء الأزهر القوة التي تمثل الرأي العام وتطالب برفع المظالم.^(٣)

من الأعيان الذين اهتم الرحالة والحجاج بلقائهم: الأشراف، ومن تبقى من نسل الأسر الشريفة التي حكمت مصر قبل العثمانيين والمماليك، حيث يفيدنا المؤرخ أبو القاسم الزباني باجتماعه بالشيخ إسماعيل العباسي، وهو الباقي من نسل بني العباس، خلفاء مصر، كان مؤرخا وشيخا للأطباء بمصر، وجدّه هو محمد بن يعقوب، الذي أخذه السلطان العثماني إلى اسطنبول لما فتح مصر، وعندما حضرته الوفاة سرح السلطان محمد بن يعقوب إلى مصر، ورتب له ستين درهما تعطى له من خراج مصر، له ولعقبه، ولقد استمر أولاده على قبضها إلى سنة

(١) جمعها العياشي في: اقتفاء الأثر...المصدر السابق.

(٢) فرغلي علي تسن، تاريخ مصر الحديث، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص، ٧٦.

١١٣٠هـ - ١٧١٨م. إلى أن قدم مصر حسن باشا،^(١) وزير السلطان عبدالحميد،^(٢) سنة ١٢٠٠هـ - ١٧٨٦م، فقطع المرتبات، وتوجّه إليه هذا الشيخ بفرمان السلطان سليم لجدّه محمد بن يعقوب فكتب للسلطان عبد الحميد بشأنه، فكتب له أن يعين له ما فيه الكفاية، وأعطاه النظر في أوقاف المارستانات^(٣) (المستشفيات).

لقد اختار جملة من العلماء المغاربة أثناء رحلة أداء فريضة الحج الإقامة في الحواضر المصرية مثل القاهرة والإسكندرية للاعتبارات المذكورة سالفاً. ومن أشهر العلماء الجزائريين الذين نزلوا مصر واستوطنوها الشيخ العالم الأديب أحمد بن محمد المقرئ التلمساني.^(٤) رحل إلى مصر عدة مرات في طريقه إلى الحج، ثم استوطن بها نهائياً سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م.^(٥) وتوفي بها. وكانت له مع علماء

(١) قائد عسكري عثماني أرسله السلطان لإخماد الفتنة التي اندلعت بين بكوات مصر، فأخمدها وحكم مصر إلى غاية وصول الباشا الجديد. ينظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) السلطان عبد الحميد الأول العثماني حكم ما بين ١١٨٧هـ - ١٢٠٣هـ / ١٧٧٤م - ١٧٨٩م. في عهده لم يعد للباشاوات في مصر دور أمام سلطة البكوات، ينظر: جرجي، زيدان، مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، دار الآفاق العربية، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٤م. ص ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٣) الزباني، المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٤) ترجمته في رحلته "رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق"، تحقيق محمد بن معمر، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر ٢٠٠٤، ص ص ٥ - ١٥.

(٥) المقرئ، الرحلة، المصدر السابق، ص ١٢.

مصر مناقشات ومراسلات معظمها كانت شعرية، كما أنه أجاز عددا كبيرا منهم في مختلف العلوم.

ومن أبرز العلماء الجزائريين الذين استوطنوا مصر في منتصف القرن السابع عشر الميلادي الشيخ يحيى الشاوي. لقد كان الرحالة العياشي حريصا على لقاء هذا العالم الجزائري، فحصل له ذلك، وتذاكر معه، وشهد له بالأهلية في علوم عديدة، خاصة علم النحو واللغة، وقدم له ترجمة في رحلته.

لقد أفادنا العياشي بالطريقة التي استقر من خلالها الشيخ يحيى الشاوي بمصر، ذلك أن الشيخ اختار الطريق البحري في العودة إلى الجزائر، لشدة برد الشتاء بدرج برقة، ولكن السفينة تعطلت، فاضطر للعودة إلى القاهرة، وهناك انتال عليه الطلبة المغاربة في الأزهر وأعجبوا بسعة علمه، فجلس للتدريس بالجامع الأزهر، وذاع صيته في البلاد المصرية وغيرها، حتى وصل إلى أرباب الدولة، ولذلك عين قاضيا للمالكية بها، واستقر نهائيا بمصر، كما تشرف بإمارة الحج المغربي مرتين.^(١) وتوفي في طريقه من مصر إلى الحجاز سنة ١٠٩٧ هـ - ١٦٨٦ م.^(٢)

ومن أعيان العلماء الجزائريين بمصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي، الشيخ المفتي أحمد بن عمار.^(٣) لقيه الرحالة الورتيلاني واعتبره من شيوخه، وقال عنه أنه: " علامة بالاتفاق".^(٤) كان ابن عمار فقيها ومحدثا ومفتيا، وكذلك صاحب

(١) العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ج ٢، ص، ٣٦٨.

(٢) الأفراني، المصدر السابق، ص ٣٣٦.

(٣) ترجم له: عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ج ١، ص ١٢١.

(٤) الورتيلاني، المصدر السابق، الورقة، ٨٢.

رحلة حجازية "تحلة اللبيب، بأخبار الرحلة إلى الحبيب"^(١) له تأليف عديدة، مثل كتاب: "لواء النصر في علماء العصر". رحل إلى الحجاز عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م، إلا أن بداية رحلته إلى المشرق كانت سنة ١١٦٦هـ / ١٧٥٣م. أقام بمصر لمدة معينة ثم قضى بقية حياته بالحجاز، كان شاذلي الطريقة.^(٢)

(١) توجد نسخة مخطوطة منها بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: ٢٧٥٧ في الميكروفيلم، إلا أن الرحلة مبتورة، فالجزء الخاص برحلته إلى المشرق مفقود. عرض فصول الرحلة في الورقة: ٠٢.

(٢) الكتاني، المرجع السابق، ج ١، ص، ١٢١.

الخاتمة.

كانت مناسبة أداء فريضة الحج فرصة لتفاعل الرحالة والحجاج المغاربة مع بعض المظاهر الاحتفالية للمجتمع المصري، خصوصا على مستوى الحواضر المصرية الكبرى، مثل القاهرة والإسكندرية. وبالنظر إلى الأهمية العلمية والدينية لمصر فلقد اختار الكثير من المغاربة لا سيما العلماء منهم الإقامة بشكل دائم في الحواضر المصرية. وتصدروا التدريس والإفتاء والقضاء في مصر.

وعلى مستوى التربية وتزكية الأنفس وسلوك طريق التصوف كان يقيم بمصر أقطاب يمثلون مختلف الطرق الصوفية، وعلى أيديهم كان يتم تجديد العهد وأخذ الطريق وتوجيه المريدين، وما عزز ذلك وجود جملة من المقدرات والمشاهد والمقامات منحت لمصر ولأهلها قداسة في نظر المغاربة والجزائريين. وكان من نتائج ذلك تحقيق التواصل الصوفي بين مصر وبلدان المغرب بانتقال طرق صوفية مصرية إلى المغرب مثل الخلوتية، وكذا انتقال طرق صوفية مغربية إلى مصر والمشرق مثل الناصرية.

إن اهتمام حكام مصر منذ العصور الإسلامية الأولى بالمقدرات والآثار الإسلامية والمؤسسات العلمية ودور الرعاية الاجتماعية وبشؤون الحج وما يرتبط به من احتفالات وطقوس وتحضيرات، كل ذلك ساهم إلى حد بعيد في استقطاب الحجاج المغاربة إلى درجة أنهم كانوا يفضلون الالتحاق بركب الحج المصري لما فيه من التنظيم والرعاية الأمنية والخدمات المتنوعة.

ساهم الرخاء الاقتصادي والتنوع البشري بمصر في استقطاب الحجاج بحيث يجدون في الأسواق المصرية مختلف حاجياتهم وبأسعار منخفضة، وبالنظر إلى قرب المسافة بين مصر والحجاز فقد كانوا يتركون أمتعتهم عند المصريين ريثما يعودون من رحلة أداء فريضة الحج.

وبالنظر إلى العوامل المذكورة فقد كانت إقامة الحجاج الجزائريين والمغاربة بمصر تطول إلى درجة أنهم شكلوا عنصرا فاعلا في التحضير لموسم الحج من خلال المشاركة في مختلف الاحتفالات، لا سيما احتفال خروج كسوة الكعبة المشرفة، حيث كان هناك يوم مخصص للمغاربة يعرف بيوم المغاربة.

وهكذا ساهمت الرحلة الحجبية أو الحجازية في تمتين الروابط الاجتماعية والدينية والعلمية بين بلدان المغرب ومصر.

قائمة المصادر والمراجع.

✓ المصادر المخطوطة.

- ١ - الدرعي الناصري، أحمد بن محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: ١٣٤٩.
- ٢- الورتيلاني، الحسين، الرحلة: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: ٢١٧١.
- ٣ - ابن عمار، أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: ٢٧٥٧.

✓ المصادر المنشورة.

- ٤ - الإدريسي، أبو عبد الله الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بإفريقيا والأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢.
- ٥- إدوارد، دونوفو، كتاب الإخوان، دراسة اتنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق، كمال فيلاي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ٢٠٠٣.
- ٦- الإفرائي، محمد الصغير، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط١، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- ٧- ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط٢، بولاق، القاهرة، ١٣٧٩هـ./١٩٦٠.

- ٨- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ٩- جلبي أوليا، الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، تقديم محمد حرب، ترجمة حسين مجيب المصري وآخرون، مراجعة ماجدة مخلوف، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ١٠- ابن جبير، الأندلسي، الرحلة، دار صادر، بيروت، د-ت.
- ١١- الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د-ت.
- ١٢- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضرى، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.
- ١٣- الزبدي، عبد المجيد بن علي الفاسي، بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، تحقيق محمد زينهم، ط١، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ١٤- الزباني، أبو القاسم، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ١٥- المقري التلمساني، أحمد بن محمد، "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق"، تحقيق محمد بن معمر، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٤.
- ١٦- النابلسي، عبد الغني، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

- ١٧- العياشي، أبو سالم، ماء الموائد المعروفة بالرحلة العياشية، طبعة حجرية بفاس، اعتنى بها محمد حجي، ١٩٧٧.
- ١٨- العياشي، إقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، تحقيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط، العدد رقم: ٣٣، ١٩٩٦ م.
- ١٩- الشعراي، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى، تحقيق، أحمد عبد الرحمن السائح وتوفيق علي وهبة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م.
- ٢٠- التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف، مستفاد الرحلة والاختراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م.
- ٢١- التتلاني، عبد الرحمن بن عمر، الرحلة الحجازية، نشرها بلعالم محمد باي في كتابه: الغصن الداني في ترجمة الشيخ التتلاني، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤.
- ✓ المراجع.
- ٢٢- بورقية، رحمة، رحلة التصوف، سيدي أحمد البدوي، من فاس إلى طنطا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، المغرب، ع ٠٩ بعنوان: (التواصل الصوفي بين مصر والمغرب)، ٢٠٠٠ م.
- ٢٣- البزاز، محمد الأمين، رحلة الأيمان والمتاعب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. ع: ٢٧، بعنوان "وقفات في تاريخ المغرب"، ط١، ٢٠٠١.
- ٢٤- الجفني، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط٢، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م.

- ٢٥- جرجي، زيدان، مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، دار الآفاق العربية، ط١،
١٤٢٦هـ/٢٠٠٤م.
- ٢٦- حنفي، أحمد عبد اللطيف، المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية، الهيئة
المصرية للكتاب، ٢٠٠٥م.
- ٢٧- الكحلوي محمد، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة
والأندلسيين، ط١، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ٢٨- الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والمشیخات
والمسلسلات، تقديم إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٢٩- فيلالي، عبد الكريم بن الطاهر، الرحلة الورتيلانية (عرض ودراسة)، دار
الشهاب، باتنة، الجزائر، د- ت.
- ٣٠- الفيلالي عبد الوهاب، الرؤية الصوفية عند الشيخ الطيب بن كيران، ط١، دار
الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.
- ٣١- فرغلي علي تسن، تاريخ مصر الحديث، ط١، دار الوفاء الإسكندرية،
٢٠٠٢م.